حاجاتُ المتعلم ومغرياتُ المدرسة

عبد الكريم الرحيوي

المدرسة للمتعلم كالروح للجسد، والمتعلِّم للمدرسة كالرضيع للأم، والمعلّم لهما معاً كالربان للسفينة..

فالمدرسة هي المخلِّص من الجهل، والحامي من التخلّف، والحصن من سلطة البَطالة.. وهي مغرِس القيم، ومشتَل الفضائل، ومنبِت حُماةِ الوطن وحمَلةِ رسالة القرآن..

والمتمدرس باعث الحياة فيها، وضامن استمراريتها مرفقاً للتربية والتعليم. له تَدقّ أجراسَها في المصْبَح والمَمْسى، وتَفتح أبوابَها تحضنه في الغداة والعَشيّ.. تفرح لمقدمه وتحييه بأنشودة الوطن، وتأسى لانقطاعه وتشيّعه بدموع الحَزَن. وإذْمَا حنّ إليها وطرق بابها من جديد تقبّلته بحنين أمومي ودفء جنوني، وأدمجته في كيانها وضمّته بأحضانها.

والمدرِّس قائدُ المدرسة إلى النجاة، وصانعُ عقول روادِها طلابِ المعارف والعلوم، ومربي المُثل والقيم في نفوسهم، وموجّهُهُم نحو بَرّ الأمان من الزيغ والانحراف. وهو قدوةُ المتعلمين والمجتمع، ورسولُ العِلم والمعرفة، ونبراسُ ظلمات الجهل والأمية.

وللمتعلّم رغبات وحاجات ينتظر من المدرسة أن تلبيها له، ويتوقّع منها - وأسْرتَه- أن تنمّيها لديه. والمدرسةُ انتدبت نفسها لتحقيق تلك الانتظارات، وهيأت فضاءاتها لترجمة تلك الحاجات إلى واقع ملموس؛ فتجاوزت - بذلك- دورها التعليمي التربوي إلى أفق أوسع وفضاء أرحب: تزرع القيم، وتنمي المهارات، وترسخ المبادئ والثوابت...

أولا- المدرسة فضاء للتعلم:

يؤمّ المتعلمُ المدرسة، أولاً، رغبةَ التعلّم وتلقّي المعارف والمهارات، فتعمل المدرسة جاهدة على تحسين مداركه وتحصين كفاياته التي تزوَّدَها في خلال سنوات تمدرسه. إنها الفضاء الأول بعد البيت الذي تناط به مسؤولية إتمام وتقويم ما تلقاه في مراحل عمره الأولى بين أسرته ومحيطه، وهي ذات الفضاء الموكول بمَهمّة تتبّعه عبر مستويات التمدرس المختلفة تصاعديا إلى أن تُخَرِّجه فاعلا في مجتمعه، مسؤولا على سلامته اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياديا... وهذا المسعى هو الدافع الآخر لدى المتعلم لارتياد المدرسة؛ إذ تتغيّى أسرته – وهي تدفع به إلى التمدرس أول وهلة- أن يكون مخلِّصها مستقبلا من الحاجة والعوز، فهو مشروع تستثمره ليعود عليها بالنفع، أساساً؛ تماما مثلما يتغيّى مجتمعه منه – وهو يراه يرتقى سلّم المستويات الدراسية حتى التخرّج – أن يكون درعا واقيا لوطنه من التخلّف الفكري والاجتماعي والاقتصادي والمساس السيادي.

ولذلك فإن الأسرة تغدو، إلى جانب المجتمع ككل - إلزاميا- شريكاً فاعلا مع المدرسة والمربّين في تشييد صرح شخصية المتعلم. فهم جميعا يتوقون إلى إنتاج «سلعة بشرية رائجة» في سوق البناء المجتمعي، مَدخلاً إلى ضمان استمرارية الأمة وإدارة المؤسسات. «وكل متدخل، من موقعه، مدفوع إلى انخراطه، بما في وسعه، للنهوض بهذا الورش الوطني الذي يعتبر مدخلا للنهضة وسبيلا للتقدم؛ لأنه استثمار في العقول التي هي كنوز لا تفنى»[1].

وهذا التعاون بين المتدخلين يجعل المتعلم في قطب اهتمامات المجتمع، ويدفعه إلى الإحساس بأنه «مراقَب» داخل محيطه اعتباراً أنه «مشروع مجتمعي». ولذلك فـ «إن تعاون الأسرة، والمدرسة، والتنسيق بينهما، وبين وسائل الإعلام، هو أمر في غاية الأهمية، حتى تشكل هذه الوسائط التربوية، والتعليمية إطارا موحدا يستقي منه الطفل سلوكاً يغرس في نفسيته تقدير التراث، ومحبته، والحفاظ عليه (...) ويبصّره بإنسانيته وكينونته الممتدة في التاريخ»[2].

إن سعي المدرسة المغربية إلى تلبية حاجات المتعلم التعليمية يفرض عليها، أساسا، الانتقال من النُّظُم التعليمية التقليدية المتهالكة إلى نُظُم قادرة على بناء المعارف والعلوم والتكنولوجيات المواكبة للتطورات التربوية التي يعرفها العالم؛ «وسعيا لتحقيق هذا الهدف، فإنه لابد من جعل التعليم مشروعا وطنيا للتنمية والتطوير، يتجاوز دور واهتمام وزارة التربية الوطنية، ليغدو في بؤرة اهتمام كافة القطاعات الحية في المجتمع، لأنه يمثل شريانها الذي يمْكنه أن يبث فيها الحيوية والتجديد والنماء والتطوير، إذا ما تمت العناية بمقوماته وأسسه»[3].

1- عبد الكريم الرحيوي: التربية الرقمية وتأهيل التعليم. مجلة علوم التربية. العدد -57 أكتوبر 2013. ص 46.

2- الدكتور محمد الدريج: المدرسة ودورها في التربية على المواطنة ومبادئ السلوك المدني (حوار). دفاتر التربية والتكوين. العدد -5 شتنبر 2011م. ص 59.

3- أحمد أوزي (دكتور): افتتاحية العدد 55 من مجلة علوم التربية. ص 5.

لقد حرصت المدارس على القيام بدورها الحيوي المتمثل في تعليم النشء ما يعينه على تحسين مستواه المعرفي وقدراته الفكرية، وأسهمت في تنمية كفاءاته وصقل مواهبه وتقوية درجات ذكائه. وقد ساعدها على النجاح في أداء مهمتها تجديدُها للبرامج والمناهج وطرق التدريس بما يواكب العصر ويساير التطور، وانفتاحُها على تجارب الدول المتقدمة في هذا المجال لتجديد مواردها وتأهيل طاقاتها البشرية عبر أوراش التكوين والتكوين المستمر، وكل ذلك خدمة للمتعلم، «وفي مقدمتها: جعل مصلحة المتعلمين فوق كل اعتبار»[4].

ثانيا- المدرسة فضاء للقيــم:

القيم (Valeurs) «هي مبادئ وتمثلات ومعايير توجه الفرد نحو اختيارات معينة أو تصرفات خاصة يجد تفسيرها في نظام تلك القيم. فهي إذن:

محكّ نرجع إليه من أجل الحكم على الأشياء.

أهداف غائية نسعى إليها.

بدائل نختار من بينها ما يناسب توجهاتنا.

جزء من نسق من القيم المتداخلة التي تكوّن فلسفة فرد، أو معتقدا، أو اتجاها»[5].

ويربط ج. دولاندشير (G.De Landshere) مفهوم القيمة بشقين اثنين: شق شخصي يرتبط بما يختاره الفرد ويميل إليه في حياته، وله به علاقة عاطفية وفكرية. وشق اجتماعي ممثَّل بثقافة المجتمع المنتشرة بمجموع قنوات المجتمع المؤسساتية[6].

وتأبى السياسة التربوية المغربية إلا أن تجعل من المدرسة مجالا خصيبا لزرع القيم في نفوس المتعلمين عبر مجموعة من المرتكزات، يمكن اختصارها في اثنين:

- تكوين شخصية مستقلة ومتوازنة ومتفتحة للمتعلم (ة) المغربي، تقوم على معرفة دينه، وذاته، ولغته، وتاريخ وطنه، وتطورات مجتمعه.
- اعتبار المدرسة مجالا حقيقيا لترسيخ القيم الأخلاقية، وقيم المواطنة، وحقوق الإنسان، وممارسة الحياة الديموقراطية[7].

4 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين. ص 11.

5 - وزارة التربية الوطنية: ملاءمة التعلم لمتطلبات الحياة، الملف2: القيم والاتجاهات المناسبة للحياة. ص11.

6 - G.De Landshere : Introduction à la recherche en éducation. P182.

7 - راجع: جماعة من المؤلفين: مرشدي في اللغة العربية. دليل الأستاذ. السنة 3 من التعليم الثانوي الإعدادي. ص12.

وتعد الأندية التربوية، إلى جانب البرامج والمناهج المعتمدة، أنجع سبيل وأيسر دليل لتفعيل التربية على القيم والمُثُل في المدرسة التعليمية، تماما مثلما تسهم في مزاولة المتعلّم نوعاً من أنشطة الحياة المدرسية التي يميل إليها ويكتشف ذاته فيها. فهي إطار تنظيمي ينخرط المتعلمون ضمن فضاءاته، من أجل تنزيل مضامين المذكرات المتعلقة بالاحتفال بالمناسبات والأعياد الوطنية والدينية، والأيام الوطنية والعالمية، ومختلف أنشطة الحياة المدرسية على المستوى المحلي أو الإقليمي أو الجهوي، تحقيقا لمتنفَّس حيوي تَبرز فيه المواهب، وتتشبع داخله النفوس بالقيم المثلى، والمبادئ النبيلة الفضلى.

وترتبط أنشطة الأندية التربوية بمفهوم التفتح العقلي والوجداني والسلوكي، واكتشاف الميول والقدرات والمواهب، وتعهدها بالرعاية والتهذيب. وتتنوع بتنوع مجالات الأندية التربوية وبخاصة:

- مجال التفتح العلمي والتكنولوجي والمِهْني؛
- ومجال التفتح الثقافي والاجتماعي والرياضي.

وتنفتح تلك الأنشطة على المواد الدراسية المتنوعة، وعلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية والرياضية وغيرها.. وتعتمد وضعيات تمكّن المتعلم من الاستكشاف والتجريب والاستنتاج والممارسة العملية، وتتيح له مجالا واسعا للمبادرة والاختيار[8].

وعليه: إن المدرسة المغربية حريصة كل الحرص على تأثيث فضاءاتها بكل ما من شأنه أن يفتح شهية المتعلم للإقبال على التمدرس، ويغريه بالارتباط بمناحي التعلم وفضاءات التربية، أولاً قصد محاربة كل مظاهر وأشكال الهدر، وثانيا رغبةَ صقل مواهبه وميولاته من خلال انخراطه الفعال ضمن أوراش أنشطة الحياة المدرسية التي تؤطرها الأندية التربوية.

والتربية على القيم إحدى أهم الأوراش الكبرى التي توليها الحياة المدرسية بالغ اهتمامها؛ لما لها من الأهمية الكبرى في بناء الشخصية، والاعتماد على النفس، وتخليق السلوك المدني للمتعلم، وحبّ الوطن والدفاع عن الثوابت والمقدسات...[9].

ثالثا- المدرسة فضاء للعب وتنمية الذكاء:

نصّت المادة 31 من اتفاقية حقوق الطفل على حق جميع الأطفال- دون استثناء - في اللعب، فجاء في إحدى موادها: «لكافة الأطفال الحق في الراحة والتسلية واللعب وممارسة الأنشطة الثقافية والفنية المناسبة»[10].

8- وزارة التربية الوطنية: دليل الأندية التربوية. ص 13.

9- خصّ المجلس الأعلى للتعليم بالمملكة المغربية العدد الخامس من مجلة دفاتر التربية والتكوين التي صدرت عنه في شتنبر 2011م، لملف: المدرسة المغربية والتربية على القيم في مجتمع قيد التحول. لذلك نحيل عليه من يبتغي التعمق في هذا الموضوع، لما يحتويه من دراسات قيمة مستفيضة باللغتين العربية والفرنسية.

10- وزارة التربية الوطنية، الوزارة المكلفة بحقوق الإنسان، يونسيف، المرصد الوطني لحقوق الطفل: اتفاقية حقوق الطفل. ص18.

وتناط بالمدرسة مَهَمة تفعيل مضامين الاتفاقيات الحقوقية وتنزيل بنودها. والحق في اللعب مكفول للمتعلمين ومُفَعَّل ضمن أنشطة الأندية التربوية وكذا أنشطة الرياضة المدرسية أو التربية البدنية؛ لأنه وسيلة لتنمية الرصيد المعرفي والحركي لدى المتعلمين، ومدخل إلى علاج بعض الأمراض النفسية (التوحّد مثلاً) والخِلْقية (اللعب ترويض بدني) والسلوكية (اللعب يمتص العنف وينمي روح الفريق/ العمل الجماعي).

فالرياضة المدرسية ذات أغراض تتوخى منها «تنمية قدرات المتعلمين وصقل مهاراتهم الرياضية وفق الأبعاد الآتية:

- البعد الصحي والوقائي؛
- البعد التربوي والاجتماعي؛
- البعد الحركي والترفيهي؛
- البعد الرياضي؛
- البعد الانتمائي للمؤسسة والنيابة والجهة والوطن؛
- البعد التنموي والاقتصادي»[11].

ونظرا لأهمية الأنشطة الرياضية المدرسية في تحقيق النمو الجسمي والسلوكي والذهني للمتعلم؛ فقد أولاها المشرِّع التربوي مكانة تليق بها، فخصّها الميثاق الوطني للتربية والتكوين بدعامة مستقلة، وأكّد فيها على قيمة اللعب الفردي والجماعي لدى المتعلّم، بحيث «يُعتمد في طرق تدريس التربية البدنية وتحديد أنشطتها على الألعاب العتيقة وأنشطة التعبير الجسماني، وألعاب جماعية، وأنشطة بالهواء الطلق»[12].

وإذا كانت الخَرَجات الترفيهية التي تنظمها المدرسة لفائدة المتعلم مجالا للتعلم والاطلاع على ما يزخر به بلده من معطيات سياحية وجغرافية وثقافية...؛ فإنها تغدو كذلك متنفسا يُستغل للترفيه واللعب والتسلية، من خلال مجموع الأنشطة الفنية والثقافية والترفيهية، التي ترافق الخَرجة تحت تأطير البعثة التربوية المنظِّمة؛ وهو ما ينعكس إيجابا على النمو السيكولوجي للمتعلّم، ويربي فيه ملَكاتٍ تساعده على الاندماج والعطاء.

11 - وزارة التربية الوطنية- الجامعة الملكية المغربية للرياضة المدرسية: التوجيهات التربوية الخاصة بالرياضة المدرسية. ص 4.

12 - الميثاق الوطني للتربية والتكوين. الدعامة -12 المادة 131. ص 75.

ولا يخفى أن هذه الأنشطة لها وقعها الإيجابي على نفسية المتعلم؛ فهي – زيادة على تنمية ذكائه وتخصيبه وصقله- تثري مهاراته وسلوكاته، وتمتصّ الشحنات الزائدة التي قد يفجرها عنفا أو عنفا مضادا، وتجعله ذا قابلية على التعلم وحب المدرسة واحترام المدرسين ونسج علاقات مع المحيط.

المدرسة فضاء للمواطنــة:

تعددت تعاريف «المواطَنة» (La citoyenneté) وتشعبت، والباحث عن نقطة تلاقيها يُلْفي أن المواطنة حُبُّ المواطِن الوطنَ وولاؤُه له، مقابل احتضانِ الوطنِ للمواطنِ والتكفلِ به وضمانِ حقوقه، «فالمواطن يلوذ بالوطن عند الأزمات، ولكنه أيضا يدافع عنه في مواجهة التحديات، لأن المواطن لا يستغني عن الوطن، والوطن لا يستغني عن المواطن، فوجودُ أحدِهما واستمرارُه المعنويُّ رهينٌ بوجود الآخر واستمراره»[13].

فالمواطنة، بذلك، هويةٌ وانتماء وحقوق وواجبات، وهي قيمٌ ومُثُل ومنافع متبادلة، وهي مبادرات إنسانية خلاقة، وهي تضحيات وإخلاص وانخراط تنموي شامل.

ومرة أخرى تنبري المدرسة المغربية للقيام بدورها الوطني المتجسد في ترسيخ ثقافة التربية على المواطنة (L'éducation à La citoyenneté) والانفتاح على الآخر، تحقيقا لرغبات المتعلّم وحاجاته في الانخراط الفعلي في أوراش التنمية الوطنية الشاملة.

وليس استقبال المدرسةِ المتعلمَ - بداية كل أسبوع ونهايتَه- بالشعارِ الوطني وتحيةِ العلم المغربي، ثم الاحتفاءُ بالمناسبات الوطنية الخالدة، وتنظيمُ الأمسيات الفنية الموازية لهذه المناسبات، وإدماجُ قيم التربية على المواطنة وحقوق الإنسان ضمن البرامج التربوية، وإنشاءُ الأندية المدرسية للتربية على المواطنة، وغيرُها من أنشطة الحياة المدرسية... إلا أنموذج حي على انخراط المدرسة المغربية ضمن الأوراش السيادية الكبرى المدافعة عن سيادة الوطن، وعلى تفاعلها مع مضامين المواثيق الحقوقية والقانونية التي وقّع عليها المغرب، مصداقا للقول المأثور الذي يحفظه المغربي عن ظهر قلب: «حب الأوطان من الإيمان.

إن المتعلّم، وهو يتربى في كنف مدرسته على قيم المواطنة الحقة، ليحسّ بحقيقة الانتماء للوطن، والمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه في تحمل مشعل التنمية عندما تتوفر فيه شروط الاستعداد: فالتجنيد العسكري للذود عن حمى البلد مواطَنة، والانفتاح على المقاولة والتنمية الاقتصادية مواطنة، والعمل الجمعوي والتعاوني مواطنة، وكل عمل من شأنه أن يسهم في تقدم الوطن وإشعاعه القاري مواطنة.

13 - وزارة التربية الوطنية - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: حب الأوطان من الإيمان. ص 12.

إن المواطنة التي ينشدها المغرب والمغاربة – كما يقول صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله- «لا ينبغي أن تُختزل في مجرد التوفر الشكلي على بطاقة تعريف أو جواز سفر، وإنما يجب أن تُجسَّد في الغيرة على الوطن، والاعتزاز بالانتماء إليه، والمشاركة الفاعلة في مختلف أوراش التنمية التي نتمناها، وطنية كانت أو جهوية أو محلية، وتوسيع إشعاعه العالمي»[14].

خاتمـــة:

إن المدرسة المغربية مرفِق حيوي ذو أهمية خاصة، توكل إليه مهمة خرَجتْ من رحم رسالات الأنبياء، ويبلّغها أناس كادوا أن يكونوا رُسُلاً، وتسهر على استمراريته وإنتاجيته كل الحكومات المتعاقبة، وتتربع قضيته عرش أولويات المملكة بعد قضية وحدتنا الترابية واستكمال السيادة.

وهذه الحظوة التي حفّ بها المتدخلون المدرسة المغربية اعترافٌ ضمني بأهمية أبناء المغاربة في قلوبهم؛ وما خطاب جلالة الملك نصره الله بمناسبة 20 غشت المنصرم، الذي عبّر فيه جلالته عن حلول أبناء المغاربة المتمدرسين من قلبه محل الولد من قلب والده؛ إلا تأكيد على حجم المسؤولية التي يحس بها كل متدخل اتجاه أطفال اليوم ورجال المستقبل، وعلى العطف «الأبوي» الذي يوليه جلالته لكل متعلّم مغربي يرتاد مدرسةً ينهل من ينابيعها ما يعينه على بناء شخصية المواطِن المغربي الأصيل الذي تجري في عروقه دماء المواطنة الحقّة.

وما تعدد فضاءات وأدوار المدرسة المغربية، على نحو ما جلّيناه سلفا، وسهرُها- إضافة إلى تعليم المعارف والعلوم- على إدماج أنشطة الحياة المدرسية المختلفة؛ إلا «مغريات» تفتح شهية المتعلم على التعلم، وتساعده على بناء الشخصية، وتنمية المدارك الذهنية، واعتدال النمو البدني والنفسي، وصقل المواهب، وتخليق السلوكات والتصرفات، وتهذيب القيم والمبادئ، وترسيخ الثوابت والمقدسات التي نجملها في ثالوث: «الله، الوطن، الملك»... مدخلاً إلى «إنتاج» مواطن صالح وفاعل، يتمّم ما بدأه أسلافه من لبناتِ التشييد والبناء، ويبصم على صفحاتِ التاريخ بميداد الأمجاد والبطولات.

14 - محمد السادس (ملك المغرب): الخطاب الملكي السامي بمناسبة ذكرى 20 غشت 2004م بمدينة تطوان.

مصادر الدراسة:

أولاً- العربيــة:

- أحمد أوزي (دكتور): افتتاحية مجلة علوم التربية (دورية مغربية فصلية متخصصة). العدد 55- أبريل 2013م.
- جماعة من المؤلفين: مرشدي في اللغة العربية. دليل الأستاذ. السنة 3 من التعليم الثانوي الإعدادي.أفريقيا الشرق- الطبعة الأولى 2005م/ 2006م.
- سلسلة التشريع التربوي: الميثاق الوطني للتربية والتكوين. الطبعة الأولى- أكتوبر 2006م. دار الحرف للنشر والتوزيع، القنيطرة/ ومطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- عبد الكريم الرحيوي: التربية الرقمية وتأهيل التعليم. مجلة علوم التربية. العدد -57 أكتوبر 2013م.
- المجلس الأعلى للتعليم بالمملكة المغربية: مجلة دفاتر التربية والتكوين. العدد -5 شتنبر 2011م.
- محمد الدريج (دكتور): المدرسة ودورها في التربية على المواطنة ومبادئ السلوك المدني (حوار). دفاتر التربية والتكوين. العدد -5 شتنبر 2011م.
- محمد السادس (ملك المغرب نصره الله): الخطاب الملكي السامي بمناسبة ذكرى 20 غشت 2004م بتطوان.
- محمد السادس (ملك المغرب نصره الله): الخطاب الملكي السامي بمناسبة ذكرى 20 غشت 2013م.
- وزارة التربية الوطنية، الكتابة العامة، مديرية الرياضة المدرسية- الجامعة الملكية المغربية للرياضة المدرسية: التوجيهات التربوية الخاصة بالرياضة المدرسية. شتنبر 2001م.
- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: حب الأوطان من الإيمان. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء. 2005م.
- وزارة التربية الوطنية، الوزارة المكلفة بحقوق الإنسان، يونسيف، المرصد الوطني لحقوق الطفل: اتفاقية حقوق الطفل. الذكرى العاشرة للاتفاقية الدولية لحقوق الطفل. 1999م.
- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي: دليل الأندية التربوية. مديرية المناهج والحياة المدرسية. مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، 2009م.
- وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر: ملاءمة التعلم لمتطلبات الحياة، الملف2: القيم والاتجاهات المناسبة للحياة. نسخة أولية 2006م/2007م.

ثانيا- الأجنبيــة:

G.De Landshere : Introduction à la recherche en éducation. Arnand-colin 4eme Ed. Paris 1976. P182.